

إن الاسلام في نظر الجمهور يعد قبل كل شيء ديناً - نظاماً من العقائد والعبادات - يقتدر بذات النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وبسجل أقواله المحفوظ في القرآن، (١) ونحن نسمى أتباعه محمديين أو مسلمين أو « مسلمان - ويمدنا الأحصائيون بأرقام إجمالية وتفصيلية لبيان توزيعهم وقوتهم النسبية. الأحصاءات أن مجموع معتنقي الإسلام يتراوح بين ٢٤٠ و ٢٥٠ مليوناً أي ما يزيد على مجموع سكان الأمريكتين من هؤلاء ١٨٠ مليوناً في آسيا (في الهند ما يربو قليلاً على ٧٠ مليوناً وما يقرب من ٥٠ مليوناً في أندونيسيا وحوالي ٤٠ مليوناً في آسيا الغربية والباقيون في الصين وسيبيريا) وفي أفريقيا ما يربو على ٥٠ مليوناً حيث يزيد حقا عدد المسلمين على غيرهم من متبعي سائر الأديان المنظمة أضعافاً مضاعفة وحيث يكونون ما لا يقل عن ثلث سكان القارة، تصدر عن عقائدهم المتغلغلة في نفوسهم ، أن المكان الذي تبوأته التعاليم الدينية كان دائماً من العظمة بحيث لا نستطيع إغفال ناحية العقيدة عند إلقاء أي نظرة على النزعات الحديثة في العالم الإسلامي . ولم نقل المسيحية ولقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفوشيوس : يشمل الإسلام مزيجاً كاملاً من الثقافات التي نمت حول الأصل الديني أو ارتبطت به في معظم الأحوال مع تعديل قليل أو كثير فهو مزيج ذو خصائص يتميز بها في تكوينه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي تصوره للقانون وفي نظريته الخلقية ونزعاته العقلية وأساليبه في الفكر والعمل ، وهنا ينقطع امتداد الكتلة لأول مرة ولكن بعد أن تتفرع منها جماعات كبيرة منتشرة في البنغال وغيرها من أقاليم الهند تبدأ سلسلة جديدة في شبه جزيرة الملايو وتمتد متصلة في مجموع جزر الهند الشرقية حتى تنتهي في جزر الفلبين الجنوبية ، وإذا نظرنا إلى العالم الإسلامي على المصور ألفيناه يشبه هلالين عظيمين يخرج قرناً كل منهما من مركز مشترك في آسيا الغربية ويكون الشمالي منهما نطاقاً يربو عرضه على ألف ميل ويحيط بأوروبا من أقصاها إلى أقصاها تقريباً ويفصلها جغرافياً عن البلاد الغاصة بالسكان في جنوب آسيا وشرقها ، ولعل من سداد الرأي توقعنا أن يكون انتشار الإسلام على هذه الأصقاع الشاسعة واشتماله على أجناس كثيرة وتقاليد قديمة أمرين سيحولان دون بلوغ وحدة حقيقية في المدنية الإسلامية وأنه رغم اتحاد المظاهر الدينية فإن بقاء العادات التي رسخت قديماً وأساليب التفكير المختلفة في طبيعتها اختلافاً لا يدع لاتفاقها سبيلاً سيؤثر تأثيراً قوياً في ثقافة كل إقليم على حدة حتى لا يترك مجالاً لتقاليد شاملة ولا لأى وحدة تامة في الشعور وحتى يوجد عدداً من الثقافات الإقليمية الإسلامية . وكانت المدة ما بين ٧٥٠ و ١٠٠٠ م هي دور التكوين الذي طبعت فيه المدنية الإسلامية في تطورها بالطابع المميز لها و الذي لم تفقده إلى يومنا هذا وهنا لا بد أن نقف قليلاً لنفحص عن كتب مسألة ذات مساس كبير بالمعضلة الإسلامية عامة - جرينا على أن نعد الإسلام ديناً شرقياً وثقافته ثقافة شرقية حتى النميل إلى إغفال الخصائص الحقيقية للمدنية الإسلامية وحتى ليفوتنا مكانها الصحيح وخطورتها في تاريخ الجماعة البشرية . ثم إن الدين الإسلامي في ذاته واحد من مجموعة الأديان التي تشمل إلى جانبه المجوسية واليهودية والمسيحية وهو يقاسمها نفس المبادئ الأساسية (١) ومن ثم فهو من أول الأمر ينتمي لما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية تمييزاً لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية . زادت قوة فيما بعد لأن العالم الخارجي الذي انتشر فيه الإسلام من بلاد العرب كان هو العالم الاغريق الذي ورث المدنية اليونانية - الرومانية، ولهذا كانت المؤثرات الخارجية التي صاغت المدنية الإسلامية إغريقية وفارسية ، وتغلغلت الثقافة اليونانية في صميم الحياة العقلية للمسلمين، واتصالنا بها أوثق من اتصالنا بثقافات الهند أو الشرق الأقصى قسميتها شرقية ، اليهود والمسيحيون الشرقيون تحت كنف المسلمين ولم تأت سنة ١٠٠٠ م حتى كمل هذا التطور في الإسلام من عقيدة محضة إلى مجتمع متنوع النواحي حتى إذا وثب إلى ما وراء حدوده القديمة بعد ذلك ومسكن لنفسه في أقاليم ذات ثقافة موروثة أخرى لم يفعل ذلك وهو بمرونته الأولى بل انتقل ثقافة متماسكة تامة النضج حملها معه أينما ذهب . كان الإسلام في الهند وإندونيسيا هو الوارث الروحي للاسكندر وحامل لواء المدنية الاغريقية وإن كان قد هضمها وصبغها بصبغته (وربما نجد مثلاً على ذلك. أن الإسلام وحده من بين الأديان الغربية رفع الاسكندر إلى ما يقرب من مكان الأنبياء) (٢) ورغماً عن تكيف المظاهر الدينية بما يلائم العرف الإقليمي ولا سيما بين الطبقات الدنيا فإن الإسلام أبى أن يسالم بيئته الجديدة أو أن يعيد النظر في نزعتة أو أصوله ، ومع هذا كان من المحتمل أنه كلما زاد انتشار الإسلام وزاد تحويره لتقاليد غريبة الجوهر عن كنهه الصحيح حتى تلائم أغراضه فلما صار المثل الأعلى للوحدة التي يسعى لصناعتها عرضة للخطر وصارت رسالته الحقيقية عرضة لأن تضعف أو تضل السبيل. ويلي الحج مباشرة في العمل على التوحيد الروحي الجهود التي بذلها دعاة الإسلام من أتباع الطرق الصوفية المخلصين الذين يجهدون في كل ناحية في المحافظة على الإيمان وإذكاء لهيبه في قلوب أفراد الناس، ومهما كان في كثير من فروع الطوائف الصوفية الصغيرة من إسراف ورغما عما يشوبها من الهنات فإن الطرق الصوفية في جملتها لعبت ولا سيما في البلاد النائية الأحدث عهداً بالإسلام دوراً مثمراً في نشر العقائد والعبادات الإسلامية . وعلى هذا فإن تقاليد الإسلام الخالصة

وتأثيرات ثقافتة كانت تقوى على الدوام في البلاد الأحدث عهداً بالاسلام بفضل الجهود التي تضافر عليها المهاجرون من المركز الأصلي والعلماء. كان الأثر الخالص لهذه العوامل أنها أو جذب وصانت في العالم الاسلامي كله ثقافة وتقاليد متينة التماسك إلا تكن قد بلغت تمام كمالها فانها تسترعى النظر بحق إذا ما نظرنا إلى أجزائها المتباعدة واختلاف أصول أجناسها و لغاتها بدت متانة تلك الثقافة فى شيوع الكتابة العربية وظهرت بدرجة أقل من ذلك.